هذه هى فرنسا...

للأستاذ سيد قطب

كلما سمعت أو قرأت - بمناسبة حوادث سوريا الأخيرة - أن هذه الحوادث مخالفة لتقاليد فرنسا ، ثار فى نفسى شعور السخرية المريرة من هؤلاء المتحدثين أو الكاتبين ...

تقاليد فرنسا !

ومتى كانت تقاليد فرنسا إلا هذه البربرية المتوحشة ؟ ومتى كان الفرنسيون إلا عشاق المجازر البشرية ، المولعين بالدماء فى كل زمان ومكان ؟ حتى فى ثورتهم الكبرى التى يعيشون باسمها حتى الآن .

تقاليد فرنسا !

تقاليدها فى سورية ، أم فى مراكش ، أم فى تونس ، أم فى الجزائر ، أم فى أية بقعة من بقاع الأرض على مدى الأزمان والأجيال ؟

إننى لأستعرض أمامى تاريخ فرنسا فى الشرق ، فلا أجد إلا صفحات من البربرية المتوحشة ، وإلا بركاً من الدماء حيثما وضعت أقدامها فى مكان ، وإلا وسيلة واحدة من وسائل التدمير والتخريب .

فى أيام نابليون سلطت المدافع من قلعة الجبل على المصريين ، ودخلت الجنود الفرنسية المتبربرة بخيولها الأزهر ، وجرت الدماء فى شوارع القاهرة ، وديست كرامة الدين ، وانتهكت الحرمات العامة ... باسم تقاليد فرنسا !

وفى سنة ١٩٠٥ ضربت دمشق بالقنابل ، وأريقت الدماء فى الشوارع ، واعتدت الجنود الفرنسية المتبربرة على الآمنين . وضج الشرق العربى للمأساة ، بينما كانت الصحافة الفرنسية تمجد أعمال الوحشية فى سورية ... باسم تقاليد فرنسا !

وفى سنة ١٩٠٣ وما بعدها وما قبلها أيضاً سالت الدماء فى مراكش العربية لإرغام الناس هناك على الدخول فى المسيحية وترك دياناتهم الإسلامية ، باسم « الطهير البربرى » المعروف جيداً فى كل مقام إسلامى ، والذى يشهد بأن دماء الصليبيين لا تزال تجرى فى عروق الفرنسيين . ومنذ ذلك الحين بل قبله والزعماء المراكشيون منفيون فى المستنقعات الحارة ، وبلغ من الوحشية المتبربرة أن تشغل هؤلاء الزعماء السياسيين فى رصف الأرض وقطع الأحجار فى تلك الجهات الحارة النائية فى أواسط إفريقية حتى يصاب بعضهم بالسل ، وبعضهم بالحمى الصفراء ... وذلك باسم تقاليد فرنسا !

وفى تونس ، وفى الجزائر ، البلدين العربيين اللذين تدعى فرنسا أن ثانيهما « أرض فرنسية » تعمل جاهدة على رد أهله عن دينهم بكل وسائل العنف والقسوة ... باسم تقاليد فرنسا !

هذه هى فرنسا .

هذه هى فى حقيقتها من وراء الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة . بل هذه هى حتى من خلال الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة . فما هذه الأضواء التى تخدع المخدوعين ، وتطلق ألسنة الدعاة ؟ إنها الدعارة الفاجرة ، والتحلل الذميم ، والبوهيمية المطلقة ... إنها هى بعينها النكسة إلى حياة الحيوانية ، وفوضى البربرية !

* * *

ولكن هنا رءوساً وأقلاماً لا تزال تمجد فرنسا ، ولا تزال تتشدق باسم فرنسا !

أولئك بضعة نفر عاشوا فى فرنسا فترة من العمر ، فسمحت لهم فرنسا الداعرة بإشباع أقصى لذائذهم الحيوانية ، وتروية أظمأ شهواتهم الحسية ... ثم عادوا فإذا فى الشرق بقية من تقاليد وبضعة من حواجز ، فلم يرق لهم ما فى هذا الشرق من « رجعية » ! وظلوا يحنون إلى عهد فرنسا الداعر وإلى لذائذها الممنوعة ، وإلى شهواتها المحرمة !

وقليل منهم وجد فى فرنسا علماً وفناً - وإن لم يجد لفرنسا قلباً - فتنته العلم والفن عن أقدس المقدسات القومية والإنسانية . فتنته عن كرامة الوطن ، وعن حرمة الأهل وعن شرف العرض... فإذا أحدهم يجادلنى فى أمر الشرق العربى وفظائع فرنسا فيه فيقول : « إذا لم يكن بد للانسانية من أن تفقد فرنسا أو أن تفقد هذا الشرق العربى ، فليذهب الشرق العربى إلى الجحيم ! »

هؤلاء نفر منحلون ... وعلامة الانحلال فى فرد أو أمة

أن يهون عليه شرف العرض وحرمة الأهل وكرامة الوطن .
كما هانت على هذا الذى كان يجادلنى فى أمر فرنسا .

ويقولون لنا حين نجادلهم : إنكم لم تعيشوا فى فرنسا . أجل نحن لم نعش فى فرنسا ، ولكن فرنسا عاشت عندنا فلم نطلع منها فى يوم من الأيام على صفحة بيضاء ... فهلا أخطأت فرنسا مرة فأطلعتنا على حقيقة عناصرها الطيبة ؟ !

ويعتذرون لفرنسا اليوم فى تصرفاتها البربرية بأنها تحس « مركب النقص » بعد الهزيمة ، فتريد التعويض بمظاهرات القوة ، وأن سياسة وخز الإبر التى تتبعها معها انجلترا فى الشرق هى التى تثير أعصابها تلك الثورة الوحشية .

ولكننا نستعرض تاريخ فرنسا فى الشرق ، فلا نجد اختلافاً بين مركب النقص ومركب الكمال ! ، ولا نلمح فرقاً بين فرنسا الظافرة بعد الحرب العظمى وفرنسا المهزومة فى هذه الحرب .

إنها هى هى ... فرنسا المتوحشة فى كل حال . فرنسا التى تدك القاهرة بالقنابل وتعتدى على حرمة الأزهر وكرامة الدين فى عهد نابليون ، هى فرنسا التى تدك عاصمة الأمويين بالقنابل فى عام ١٩٢٥ ثم فى عام ١٩٤٥ .

فإما أن « مركب النقص » هذا طبيعة فرنسية دائمة ، وإما أننا نختلق لفرنسا المعاذير لأننا منحلون . لا ثور لعرض ، ولا نغضب لأهل ، ولا تعنينا كرامة ، بعد أن تهيأ لنا فرنسا لذائذ الحس ، وشهوات البدن ، أو حتى لذائذ الفكر وشهوات الوجدان !

* * *

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى أطلقت قنابلها على القاهرة وداست بخيلها مسجدنا الأعظم فى عهد نابليون

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى مهدت الطريق للاحتلال الإنجليزى بانسحاب أسطولها من المياه المصرية سنة ١٨٨٢ ، وتركت الأسطول الإنجليزى يهاجمنا بعد الخدعة اللئيمة التى خدعها دى لسبس لعرابى بحماية قناة السويس وعدم السماح للأسطول الإنجليزى بمهاجمة مصر من ناحيتها ، ثم النكث بالعهد ، لأن فرنسا كانت تبصبص بذنبها كالكلب ينتظر فتات المائدة فى « الاتفاق الودى » بعد ذلك بأعوام !

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى أطلقت قنابلها على دمشق عاصمة الأمويين مرتين فى خلال عشرين عاماً ، بلا مبرر ، وبعد تدمير شنيع

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى دبرت مؤامرة وحشية دنيئة لم تتم لقتل أعضاء الوزارة السورية وأعضاء البرلمان السورى ، وكان عدم إتمامها راجعاً إلى وقوع وثيقة فى يد الحكومة السورية

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى أصدرت أمراً يومياً لقواتها فى سورية بالاستعداد « لمذبحة كبرى » ! وأن قائدها هناك هو الذى صرح بحبه لمظاهر القتل والدماء !

يجب أن نذكر أن الجزائر وتونس ومراكش تلقى من البربرية الفرنسية ما لا يلقاه أحد من العالمين من القتل والنفى والتشريد ، واستخدام الوسائل الخسيسة فى تعذيب الزعماء السياسيين

يجب أن نذكر هذا كله ، لنحتقر الثقافة الفرنسية مهما تكن ، لأن الثقافة تظل أبداً جوفاء إن لم يكن من آثارها تهذيب الطبع ، وإنارة القلب ، وبث الشعور الآدمى بين المثقفين !

ويجب أن نذكر هذا كله لنحتقر دعاة فرنسا فى كل مكان فى الشرق العربى ، وننظر إليهم كما ننظر إلى الأمساخ المشوهة ، والمخلوقات المريضة ، فما يرتفع تمجيدهم لفرنسا على تمجيد الشهوة . ولو كان تمجيد الثقافة التى لا تخرج بالإنسان عن طبيعة الحيوان!

ويجب أن ننتهز الفرصة السانحة لخنق الثقافة الفرنسية فى الشرق كله ، كما صنعت سورية الباسلة ، فتختنق فرنسا فى الشرق بلا قتال !

يجب أن يكون لنا شرف المساهمة فى أن تعود فرنسا دولة صغيرة — كما تستحق — فقد برهنت على أنها لا تستحق غير هذا يوم جثت على ركبتيها عند الضربة الأولى !

يجب ... وإلا فدعونا من الثورات المؤقتة ، ومن الجعجعة الفارغة ، ومن الألفاظ الجوفاء !

سيد قطب

قضى استئنافياً بجلسة ٢٣ ـ ١٢ ـ ١٩٤٠ فى الاستئناف ١٦٨٠٢ بتغريم اسماعيل حسن الدهان جنيهاً لبيعه لحماً بأزيد من التسعيرة .